اللغة العربية والهوية الإسلامية

إعداد: أ.د. تمام حسان

كانت الديانات قبل الإسلام ذات طابع محلى أو قومى. مثال الديانات المحلية ديانة البوذية والزرادشتية والبراهمية وكلها ديانات حدود جغرافية فى مناطق شرق آسيا. ومثال الديانات القومية التى تخاطب قومًا بعينهم الديانة اليهودية والمسيحية. فالأولى كانت لإخراج بنى إسرائيل من مصر (وإن اشتملت على محاولة هداية فرعون) ،والثانية جاءت من أجل هداية الخراف الضالة من بنى إسرائيل، ولم يصرفها إلى الطابع العالمى إلا أباطرة الرومان.

أما الإسلام فقد جاء منذ البداية ﴿لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين﴾ [ص: ٧٠]. وخاطب الناس جميعًا بقوله : ﴿يا أيها الناس ادخلوا فى السلم كافة﴾ [البقرة: ٢٠٨] وخاطب النبى بقوله : ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرًا ونذيرًا﴾ [سبأ : ٢٨] وأمره أن يقول للناس عن القرآن : ﴿لأنذركم به ومن بلغ ﴾ [الأنعام : ١٩]. فكل من بلغه أن قرآنا نزل على محمد ﷺ مخاطب بالدعوة إلى الإسلام أينما كان مكانه فى هذا العالم. لهذا كان الإسلام آخر الديانات وكان محمد خاتم الرسل. فلم نجد بعد الإسلام فى الزمن دينًا ولا بعد محمد ﷺ رسولا، وإن وجدنا فإنما نجد كثرة الضلالات وتعدد المضلين.

نزل القرآن الكريم على محمد ﴿بلسان عربى مبين﴾ [الشعراء : ١٩٥] دعاه أول الأمر إلى القراءة : ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق﴾ [العلق ١]، وأشار إلى وسيلة الوصول إلى المادة المقروءة بقوله : ﴿الذى علم بالقلم﴾ [العلق ٤]. ثم انقطع الوحى مدة من الزمن فظن النبى أن الله قد تركه فاشتد ذلك عليه حتى عاد الوحى بقوله ـ تعالى ـ : ﴿ما ودعك ربك وما قلى وللآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ [٢:٤] فكانت هذه النزلة الثانية خيراً من الأولى لأنها فتحت الباب لنزول عقيدة وشريعة وأخلاق وعلاقات

وآداب سلوك. تلك هى الأمور التى يمكن الاعتماد عليها فى محاولة فهم الهوية الإسلامية. فالمقصود بهذه الهوية التكوين الثقافى بمفهومى الثقافة، وهما المفهوم التعليمى التحصيلى والمفهوم الأنثروبولوجى الاجتماعى.

كان جمهور المخاطبين بهذه الدعوة عند ظهورها محدوداً بإنذار عشيرته الأقربين تمهيداً للتوسع حتى تصبح الدعوة عامة لجميع البشر. وهكذا تحولت الدعوة من عشيرة النبى ﷺ إلى كل من سكن شبه جزيرة العرب. وكان هؤلاء طوائف متعددة على النحو التالى:

١- الأميون: وهم أفراد القبائل العربية فى الحاضرة والبادية. وقد جاء اسمهم على هذا النحو للتفريق بين أبناء الأمة العربية وبين الجاليات الكتابية التى تشاركهم فى سكنى الجزيرة ، وأشهرها اليهود والنصارى. يقول الله ـ تعالى ـ : ﴿هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم﴾ [الجمعة : ٢] ليجعل هذا الإرسال فى مقابل ما سبق من إرسال رسل من أهل الكتاب. ولقد وقر فى أذهان اليهود دائمًا أن الله أباح لهم مخاشنة الأميين (أبناء الأمة العربية) فكانوا (وما يزالون) يقولون : ﴿ليس علينا فى الأميين سبيل﴾ [آل عمران:٧٥] . ثم إن العرب لكونهم أمة غير قارئة ولا كاتبة كانت حالهم هذه سببًا فى تطور معنى الأمية إلى الجهل بالقراءة والكتابة، وجعل ذلك فى مقابل مفهوم أهل الكتاب. وهكذا قام التقابل بين مصطلحين يدل أحدهما على أمة تجهل القراءة والكتابة والآخر على جاليات ذات كتب.

٢- أهل الكتاب: والمقصود بالكتاب هنا ما يشمل العهد القديم (التوراة وما أضيف إليها) والعهد الجديد (الإنجيل). والعهد القديم كتاب اليهود، أما العهد الجديد فهو للنصارى.

١- كان اليهود يسكنون يثرب وخيبر وفدك وغير ذلك من واحات شبه الجزيرة. وكانوا ذوى وضع اجتماعى ورخاء اقتصادى ملحوظ، كما كانت لهم مؤسساتهم الدينية التى يقوم عليها أحبارهم ، وكان هؤلاء الأحبار يقرأون فى

التوراة بشارة بأن نبيًا سيظهر فى الأرض العربية فيظنون ـ فيما يبدو ـ أنه سيكون منهم. فكانوا لهذا : ﴿يستفتحون على الذين كفروا﴾ [البقرة : ٨٩]، أى يقولون إنهم سيكونون أعز جانبًا من الأميين بظهور هذا النبى ﴿فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به﴾.

ب- أما النصارى فكانوا موزعين بين مواقع مختلفة فى شبه الجزيرة إما مستقرين فى موقعهم كأصحاب الأخدود فى اليمن وإما طوافين منشغلين بالدعوة إلى المسيحية من النساطرة، أو من اليعاقبة. وهؤلاء وأولئك يشملهم قول امرئ القيس:

أصاح ترى برقًا أريك وميضه
كلمع اليدين فى حبى مكلل
يضىء سناه أو مصابيح راهب
أمال السليط بالذبال المفتل

فكان لكل من العرب واليهود والنصارى هويته التى تختلف عن هوية الآخر أو تصطدم بها.

٣- أخلاط أخرى: هم أفراد من أبناء الأمم الأخرى من فرس وروم وحبش إما فى عداد الموالى أو من الأرقاء أو أصحاب المصالح المختلفة. وكان نصيب كل من الهوية يتمثل فى نسبته إلى المصدر الذى قدم منه. ومن هنا سمعنا عن سلمان الفارسى وصهيب الرومى وبلال الحبشى وغيرهم من الغرباء المستضعفين الذين أعزهم الله باعتناق الإسلام.

دخلت الدعوة الإسلامية منذ البداية فى مواجهة حازمة ضد ثلاثة من الأعداء يبدأ اسم كل منهم بحرف الشين وهم:

١- الشرك

٢- الشيطان

٣- الشهوة

أما الشرك الذى تمثل فى عبادة آلهة من دون الله فأشهر صوره كانت عبادة الأصنام وهى أهم ما فى تراث الأميين الذين يقولون: ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾ [الزخرف: ٢٣]. والمقصود بالأمة هنا الطريقة والاتجاه. وكانت عبادة الأصنام سببا فى رفعة شأن قريش لأن قريشًا كانت لها سدانة الكعبة ومن حولها أصنام القبائل. فكان القرشيون حراصًا على هذا الوضع الذى يرفع من شأنهم بين القبائل. وكان ذلك سببا من أسباب إصرارهم على مقاومة الدعوة إلى الإسلام. ومع ذلك كان المشركون يعلمون أن الله هو الخالق ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾ [العنكبوت: ٦١]. وقد سمى عبد المطلب ابنه : عبد الله ، وكانوا يقولون : ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ [الزمر: ٣]، ويقولون: ﴿هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ [يونس : ١٨]. ومعنى ذلك أن لفظ الجلالة لم يكن كلمة ارتجلها المسلمون بل كان هذا اللفظ من ألفاظ اللغة العربية فى عصورها المختلفة. ومع ذلك وعلى رغم هذه الحقيقة انصرف الجاهليون إلى عبادة الأصنام من دون الله. وجاءت الدعوة الإسلامية لتبطل هذا الشرك، وتجعل العلاقة بين الإنسان وربه مباشرة لا وساطة فيها لصنم ولا لعبد صالح حى أو ميت، وذلك جزء من هوية المسلم.

والشيطان عدو للإسلام والمسلمين. ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوًا﴾ [فاطر : ٦]، ذلك بأن الشيطان يدعو إلى الضلال، ﴿ ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر﴾ [النور ٢١]. ولقد أجمعت الكتب السماوية على أن الشيطان الأكبر (إبليس) كان سببا فى إغواء آدم وتوجيهه إلى معصية ربه، ومن ثم فى إخراجه من الجنة. وحين طلب الشيطان من الله أن يمهله إلى يوم البعث بقوله : ﴿أنظرنى إلى يوم يبعثون﴾ [الأعراف: ١٤]، أجابه الله ـ تعالى ـ إلى ما طلب فلم يشكر ربه على هذه الإجابة وإنما قال : ﴿لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن

آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله﴾ [النساء: ١١٨-١١٩]. فهو مسلط على الضعفاء من خلق الله ﴿يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا﴾ [النساء: ١٢٠]. أما أصحاب الهوية الإسلامية النقية من عباد الله لا سلطان له عليهم ﴿إن عبادى ليس لك عليهم سلطان﴾ [الحجر:٤٢].

والعدو الثالث للإسلام شهوات النفس الأمارة بالسوء. وهى ثلاثة أنواع أيضًا:

١- اللذة الحسية

٢- حب المال

٣- حب الغلبة

ففى حرص الإسلام على كسر شره الشهوة الحسية دعا المسلم إلى إنشاء العلاقة الزوجية المشروعة ودعا من استطاع الباءة أن يتزوج وحرم الزنا. وحين نظر إلى زيادة عدد النساء على عدد الرجال أباح للرجل أن يتزوج بأكثر من واحدة ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع﴾ [النساء: ٣]، ولم يجعل ذلك دون قيد، فاشترط القدرة على العدل بينهن ﴿فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة﴾ [النساء: ٣﴾.

والمقصود بهذا القيد كسر الشهوة الحسية المطلقة بعد إباحة التعدد. والمعروف أن بديل التعدد فى أغلب الحالات يتحول إلى الفساد والإفساد كما نشاهد فى المجتمعات الغربية ومن محاربة الشهوة الحسية تحريم الخمر التى هى أم الكبائر والنهى عن تناول الأعراض والتجسس والغيبة وغير ذلك من المفاسد.

وأما حب المال فحسبنا أن نقرأ قوله ـ تعالى ـ : ﴿فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن كلا بل لا تكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين وتأكلون التراث أكلا لما وتحبون المال حبا جما﴾ [الفجر: ١٥-٢٠]. فيظهر من ذلك أن

الله ـ سبحانه وتعالى ـ يبتلى الإنسان بكثرة المال فيرى الإنسان نفسه فى نعمة وإن لم يكن له منها إلا المال، ويبتليه بضيق الرزق فيرى فى ذلك إهانة له. وهو فى حال السعة لا يكرم اليتيم ولا يحض على طعام المسكين، وإنما يبالغ فى استهلاك المال وما يحض به عليه من تراث الدنيا. هكذا يرفض الإسلام الافتتان بالمال، ويجعل المال ملكًا لله، كما يجعل الإنسان مخولا التصرف فيه ومحاسبًا على طريقة إنفاقه.

ومن ذلك أيضًا أن الله حرم الربا وبعض التصرفات المالية المشبوهة، وشرع الزكاة وأوصى بالصدقة وجعل للفقراء والمحرومين نصيبًا مفروضًا من أموال الأغنياء كما جعل حسن التصرف فى إنفاق المال طريقًا إلى الجنة.

وحارب الإسلام شهوة الغلبة بأن دعا إلى التواضع وأنكر الكبر والتباهى وفرض السلطة وإهدار الأنفس بغير حق والظلم واحتقار الضعفاء والسخرية منهم. كما أنكر التمييز بين الناس بسبب النسب أو اللون أو العرق، وجعل الفضل بينهم معلقًا على التقوى دون غيرها. تلك هى ثوابت الدعوة الإسلامية التى بنيت على الحكمة والموعظة الحسنة، والتى تسعى إلى تثقيف المسلم ثقافة تسلكه فى عداد عباد الله الصالحين الذين وصفهم القرآن الكريم بقوله : ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا... إلخ﴾ [الفرقان:٦٣:٧٦]. وتلك آيات تبين الكثير من عناصر الهوية الإسلامية، كما تبينها أيضا الآيات الأولى من سورة المؤمنون.

انبلج صبح الإسلام فنشأت ظروف ومواقف لم تكن من قبل . وبدأت حركة من التحولات جعلت الأمة تبحث عن وسيلة تصل بها إلى غايتها فلم تجد أداة لبلوغ هذه الغايات أجدى ولا أعظم أثرًا من اللغة التى بها نزل القرآن وجرى بها تبليغ الدعوة .

لقد أعاد الإسلام صوغ كل شىء لم ينسجم مع تعاليمه، وكان نزول القرآن بلسان عربى مبين ثورة بكل المقاييس، سواء فى مجال اللغة ذاتها من حيث هو

نص معجز ، أم من حيث العقيدة لأنه يبشر بدين يخاطب البشر جميعًا ولا يقف عند حدود قومية بعينها، أم من حيث الشريعة التى أبطلت ثقافة الجاهلية بأكملها وأحلت محلها شريعة نظمت أحكام السلوك والعادات والتقاليد، وبنت المجتمع الجديد على أسس من العدالة والأخوة والمساواة، وأذابت الفروق بين الأعراق والألوان، وبين الفقراء والأغنياء. ثم جاء وعد الله لعباده صادقًا إذ قال : ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا..﴾ [غافر:٥١].

كانت اللغة العربية بهذا وعاء للتعاليم الإسلامية، كما كان القرآن بنصه العربى مفتاح الدعوة ودستورها وصوتها المسموع فى كل مكان. ففى آياته نص العقيدة وشرحها وأحكام الشريعة وقواعد السلوك ومكارم الأخلاق. فكان العلم بمعانى نصوصه ضروريًا لفهم مطالب الدين الجديد. فأقبل المسلمون عندئذ على القرآن طلبًا لفهم نصه، ووفاء بالدعوة إلى قراءته فى الصلاة طاعة لله إذ : «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»، أى إن كل مسلم مطالب بحفظ الفاتحة وعدد من قصار السور لتكون عبادته صحيحة، وليطمئن قلبه إلى حسن ثواب الآخرة. وهكذا جعلت اللغة العربية تتجاوز حدودها الجغرافية إلى بلاد لم تعرفها من قبل ، وإلى ألسنة لم يكن لها سابق نطق بها. فانتهى الأمر بالعربية إما إلى مشاركتها للغات المحلية فى البلاد الإسلامية وإما إلى اجتثاث اللغات المحلية وحلول العربية محلها على نحو ما وقع فى بلاد العالم العربى الحاضر بين الخليج والمحيط.

وبعد القرآن الكريم تأتى السنة النبوية المطهرة التى تفصل ما أجمله القرآن.

وينبغى أن نشير هنا إلى أن السنة إمّا أن تأتى فى صورة قول أو عمل. أما العمل فمثاله أن القرآن لم يحدد كيفية أداء الصلاة وإنما حددها عمل النبى ﷺ إذ طلب إلى المسلمين أن يصلوا كما رأوه يصلى. وأما القول فيكفى أن نشير إلى الصحاح من روايات الأئمة من أمثال البخارى ومسلم. وكما عنى المسلمون بالقرآن كانت عنايتهم بالسنة.

قلنا إن العرب كانوا يجهلون القراءة والكتابة فلم تكن لهم ثقافة بالمعنى

الفكرى وإن كانوا أصحاب ثقافة ثرية بالمعنى الأنثروبولوجى كما يتضح من الشعر العربى الذى سمى بحق «ديوان العرب» أى أرشيف ثقافتهم الشعبية، وتاريخ أحداثهم، حتى ليمكن أن نضعه بكل اطمئنان إلى جانب القرآن والسنة فى تشكيل الهوية العربية، وإلى حد ما الهوية الإسلامية؛ لأن الشعر العربى كان وسيلة للدلالة على عربية النص القرآنى كما كان مصداقًا لقوله ـ تعالى ـ ﴿بلسان عربى مبين﴾ وتحديًا للفصحاء أن يأتوا بسورة من مثله.

وإذا لم يكن للجاهليين ثقافة فكرية فإن النص القرآنى مكن العرب والمسلمين من بناء الثقافة الإسلامية إذ كان القرآن سببا فى نشأة الدراسات اللغوية من النحو إلى البلاغة، وكان استخراج الأحكام الفقهية من هذا النص سببا فى نشأة أصول الفقه. وكان فهم الآيات التى تشرح العقيدة الإسلامية سببا فى نشأة الفرق والمذاهب ، كما كانت محاولة فهم النص سببا فى نشأة علم التفسير، وأدى النظر فى نصوص السنة إلى نشأة علمى السند والرجال، وأدى تفهم الشعر وتذوقه إلى نشأة النقد الأدبى.. وهلم جرا مما صاغ للناس نوعًا من الهوية إن كان مبناها على أصول عربية فإن كيانه كان هوية إسلامية بنيت على أصول عربية.

ومن الغريب أن هذه الجهود الفكرية لم تكد تبدأ على أيدى العرب حتى تلقاها أبناء العالم الإسلامى من الموالى على نحو وضع العرب فى مؤخرة المشتغلين ببناء صرح الحضارة الإسلامية إذ ظلوا فى موضع القيادة السياسية، وتركوا هذه الجهود الفكرية الخلاقة للموالى وغيرهم من أبناء البلاد الإسلامية فيما بعد . وحسبنا أن نشير إلى سيبويه والكسائى والبخارى ومسلم والجاحظ وعبد القاهر وابن جنى والزمخشرى وابن سينا والبيرونى والغزالى وغيرهم من أبناء البلاد الإسلامية من كبار الأئمة الذين بنوا هويتنا الإسلامية من خلال ما تركوا من تراث كتب باللغة العربية. أما الأئمة العرب فكانوا قليلين ومنهم أبو عمرو بن العلاء وابن شهاب الزهرى ومحمد بن إدريس الشافعى ومالك ابن

أنس وابن إسحاق الكندى. وهذا النفر القليل لا يعد كافيًا إلى جانب البحر الزاخر من إخوانهم من غير العرب مما كان سببا فى تحويل الهوية العربية إلى هوية إسلامية أوسع مدى يعتز بها أبناء العالم الإسلامى ويحسون من خلالها بالأخوة الإسلامية والانتماء إلى الكتاب والسنة وما بنى عليهما من ثقافة إسلامية.

عندما دب الضعف والتحلل فى بنية الدولة العباسية نشأت دويلات إسلامية تعترف بتبعيتها للخلافة ولكنها تحتفظ لنفسها باستقلال ذاتى تدرب به أمورها. ومن هذه الدول الدولة البويهية والسامانية والغزونية والحمدانية والأغلبية والفاطمية وغيرها من الدول الصغرى. وكان من الطبيعى أن تضعف الرابطة الرسمية بين المسلمين بسبب هذا التعدد، ولكننا على عكس ذلك نلاحظ ازدهار الفكر والأدب فى هذه الفترة حتى إننا إذا أردنا أن نحدد فترة الازدهار فى الثقافة الإسلامية قلنا إنها كانت فى القرن الرابع الهجرى. ثم استشرى الضعف السياسى فى العالم الإسلامى مما أدى إلى سقوط الخلافة العباسية، وقيام خلافة أخرى هى الخلافة العثمانية التى حافظت على القوة العسكرية للمسلمين، ولكنها لم يكن لها من الحس الثقافى ما يدعوها إلى المحافظة على المد الفكرى للثقافة الإسلامية. ومن هنا تسرب الضعف إلى الجانب الثقافى فى العالم الإسلامى، ولولا الأزهر وغيرته على التراث الدينى الإسلامى لانقطع حبل الوصل بين ماضى المسلمين وحاضرهم.

قام الأزهر بدور المتحف الذى يحافظ على النفائس دون إضافة إليها. وتركه العثمانيون لهذا الدور بعد أن ألغوا الاجتهاد ، وقدموا لغتهم التركية لتكون لغة الدواوين. فقام الأزهر بهذه المهمة بغيرة وإخلاص، وقصده أبناء المسلمين من مختلف أنحاء العالم الإسلامى، فكان سببا من أسباب المحافظة على الهوية الإسلامية والإبقاء على الوعى بها دون إضافة إلى رصيدها. وهكذا خيم الظلام على العقل الإسلامى طوال مدة الحكم العثمانى، وأصبح النشاط العقلى

يبدو فى صورة الشروح والحواشى دون الإبداع.

ثم تثاءب العالم الإسلامى وتمطى وفتح عينيه بظهور بعض الجماعات الإسلامية فى مختلف الجهات، كالوهابية والسنوسية وظهور الدولة العلوية فى مصر. وكان لكل من هذه الحركات دوره المختلف من التصوف إلى التأصيل إلى القوة العسكرية الطامحة إلى التنوير والانتفاع بمعطيات الحضارة الغربية. ويهمنا عند هذه النقطة أن نلقى الضوء على هذا التطور الأخير (أقصد تولى محمد على حكم مصر واليًا تابعًا للدولة العثمانية مع وجود الأزهر والتراث الإسلامى فى دائرة سلطته). مما يعطى الفرصة لأول احتكاك بين الهوية الإسلامية والحضارة الحديثة.

كان محمد على رغم أميته ذكيًا طموحًا فتمكن بذكائه وطموحه من الاستقلال بمصر عن سلطة الخلافة العثمانية، وأن يدرك الطريق إلى النهوض بالدولة التى استقل بها، فاتجه إلى الاستعانة بالغرب وبفرنسا بصفة خاصة. كانت الآثار الثقافية للحملة الفرنسية التى غزت مصر قبيل ولايته عليها بقليل ما تزال موضع إعجاب من المثقفين المصريين، وكانت الثقافة الفرنسية المتحررة من الأطر الفكرية للعصور الوسطى بعد الثورة ذات جاذبية خاصة لدى مستشارى محمد على، فنصحوه بتنشئة طائفة من الشباب المصرى المزودين بتربية ثقافية عصرية، وأن يتم ذلك بإرسالهم إلى فرنسا للحصول على هذه التربية الثقافية من خلال التخصص فى فروع مختلفة من العلم الحديث.

وفى الوقت ذاته أنشأ محمد على عددا من المدارس الابتدائية والثانوية على النظام الحديث فى التربية، وأمر بترجمة المؤلفات التعليمية والعلمية من الفرنسية إلى العربية، وبتأليف الكتب المدرسية لخدمة هذا الغرض. فكان ذلك بداية لنشأة نوع جديد من التعليم الحديث يختلف طابعًا وغاية عن التعليم الأزهرى. فظل هذان النوعان من التعليم قائمين جنبًا إلى جنب فى مصر إلى يومنا هذا: تعليم أزهرى وتعليم عام.

أرسل محمد على البعثات إلى فرنسا واستعان بعلماء من فرنسا من أجل

دعم الجهود المحلية فى غرس جذور علمية مختلفة فى التربة المصرية كالطب وغيره.

وهكذا استعان محمد على بعطاء عنصرى الزمان والمكان: فأما الزمان فقد هيأ لمحمد على ولاية على مصر ومنح فرنسا تفوقًا على بقية الشعوب الأوربية نظرًا لنتائج الثورة والتحرر من قيود العصور الوسطى، وأما المكان فقد أعان محمد على بوجود مصدر يستمد منه طلاب البعثات التى يرسلها إلى فرنسا، وذلك هو الأزهر ثم إن جهود محمد على كانت فى النهاية خضوعًا لضرورات العولمة الثقافية لإمداد اللغة العربية بمدد من الكفاءة الإضافية يجعلها قادرة على أداء دورها فى تنمية العقلية الإسلامية.

إن الناظر إلى مظاهر الهوية الإسلامية فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى لن يفشل فى العثور عليها فى صور مختلفة بين التطرف والاعتدال. وقد يكون التطرف فى صورة الإرهاب أو فى صورة التأصيل، كما يكون الاعتدال فى صورة السماحة أو فى صورة التواكل. وبين هذه الصور الأربع نجد المواقف تختلف بين ما نراه فى أفغانستان وفلسطين ونيجيريا والفلبين والبوسنة والشيشان وكشمير وغيرها من مواطن الاحتكام بين الهوية الإسلامية وغيرها من الهويات. ولو حاولت الكشف عن طبيعة الهوية الإسلامية فى كل هذه الأحوال لوجدت الثقافة الإسلامية بلغتها العربية هى المصدر الأساسى لهذه الهوية، ولو جدت عناية المسلمين بلغة القرآن دليلا لا يخطئه الفهم على اعتزاز الأمة الإسلامية بهذه اللغة. إن مسابقات حفظ القرآن لتظهر بوضوح أن المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها يعتزون بكتاب الله وبلغته العربية حتى إن كانت نشأتهم قامت على استعمال لغة غير لغة القرآن.

وإن ما نسمع عنه من تسابق الولايات النيجيرية إلى إقامة الشريعة الإسلامية قانونا للسلطة والحكم ليدل على مدى إكبارهم للهوية الإسلامية. وإن ما نعلمه

من إحساس المسلمين فى مختلف بقاع الأرض بتميزهم الدينى والثقافى عن سواهم لدليل على شعورهم بهذه الهوية. أضف إلى ذلك أن عددا من الدول الإسلامية غير العربية كالصومال وجيبوتى وجزر القمر لم تجد من المنظمات ما تنتسب إليه إلا الجامعة العربية.

إن اللغة العربية ستبقى حية ولن تموت، ذلك ما يدل عليه وعد الله ـ سبحانه وتعالى ـ بحفظ كتابه إذ يقول : ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ [الحجر:٩]. إن المرء ليدرك ما يبشر به حاضر اللغة العربية من مستقبل مزدهر يتناسب مع طموح أبنائها إلى الوصول لمستوى مشرف يذكرهم بما كان لأجدادهم من ماض مجيد اتسعت به رقعة لغتهم فى أرض الإسلام. إن اللغة العربية ما تزال تحتل مكانا مرموقًا بين اللغات الأخرى على الرغم مما أصاب العرب من ضعف سياسى ومن بعد عن مركز القيادة فى العالم. ومن الأدلة على هذا المركز المرموق للغة العربية ما يلى:

١- أنها واحدة من عدد من اللغات التى تستعمل فى المحافل الدولية.

٢- أنها إحدى اللغات ذات الاتساع الإعلامى من خلال الأقمار الصناعية.

٣- أن لها وجودًا فى المؤتمرات العلمية وفى الأوساط العلمية.

٤- أن الأدب العربى المعاصر يحظى بالترجمة إلى اللغات الأخرى.

٥- أن نمو اللغة العربية فى حقل المصطلح يجعل من الممكن فى يومنا هذا أن تتسع لغة العرب لجهود الترجمة فى الكثير من حقول المعرفة.

٦- أن الإنتاج العربى فى العلم والأدب يحصل اليوم على جوائز علمية.

٧- أنه بعد اعتماد التعليم من خلال العربية على التلقين وحفظ النصوص أصبح العالم العربى اليوم يزخر بالجامعات ومراكز البحوث، وينشئ المدن العلمية لأول مرة فى تاريخه.

٨- أن الدراسات اللسانية والنقدية التى تتناول اللغة العربية تشهد فى الوقت الحاضر نهضة تذكرنا بما كان لها فى الأيام الخوالى من عناية باللغة

والإنتاج اللغوى .

٩- أن اللغة العربية استوعبت الآن أساليب جديدة لم تكن لها من قبل كأساليب المسرح والسينما والصحافة والإعلان والدعاية بصورها المختلفة.

١٠- أن الشعر العربى يخضع فى حاضره لتجربة جديدة يروج أصحابها لها وإن كنا ﴿لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا﴾ [الجن:١٠]، لأن هذا الشعر بعيد عن تقاليد الشعر العربى وما تمتاز به من وسائل الإطراب الصوتى، وتعزف عما سماه السلف «عمود الشعر».

كل هذه العناصر التى تدعو إلى الاطمئنان إلى مستقبل اللغة العربية وإلى أثرها فى تحقيق الهوية الإسلامية لا تمنعنا من التحذير من ظواهر خطرة نراها تتعارض مع هذا المستقبل، وتدعو إلى الاحتراس من إهمال مقاومتها. من هذه الأمور:

١- هرولة بعض المثقفين إلى تطعيم حديثهم بالكلمات الأجنبية التى لها ما يقابلها باللغة العربية من الألفاظ المشهورة، وذلك طلبًا للوجاهة.

٢- استعمال لغة الإعلان لأسماء أجنبية لمؤسسات عربية، وكتابة أسماء عربية بحروف لاتينية.

٣- كثرة عدد المدارس التى تعلم أبناءنا باللغات الأجنبية وانعكاس ذلك على هوية هؤلاء الأبناء.

٤- الخضوع القومى لسلطان العولمة وتفضيل المنتجات الأجنبية فى مجال الثقافة على المنتجات الوطنية، كما فى معروضات التلفزيون والسينما... إلخ، وكما فى تفضيل مشاهدة الإعلام الأجنبى على الإعلام الوطنى.

هذه جوانب ذات أثر غير مباشر على الهوية الإسلامية بسبب عدم التمسك بوسيلة الوصول إليها وهى اللغة العربية.